القيصر وامرؤ القيس

لا جدال في ان تاريخ الأدب العربي القديم لم يحفل بشاعر كما حفل بامرئ القيس ، فاكثر من ذكر اخباره وحوادثه ، وافرد له مكانا لا يرقى اليه غيره من الشعراء ، لانه حامل لوائهم وسابقهم الى اشياء ابتدعها ومحاسن ابتكرها ؛ على ان الشعر كان ادنى وسائله ، فقد نشأ في بيت من بيوتات الامارة ، وقتل ابوه وهو بعيد عنه ، فنهض يطالب بثأره ، وقضى شطر حياته يطوف الآفاق في محاولة الملك وطلب المجد ، حتى اخلف ظنه ما كان يرتجيه ورضي من الغنيمة بالإياب ، فمات بضيعة بعيداً عن اهله ووطنه وقومه ، وانتهت بذلك ملحمة الملك الضليل التي نحاول في هذه الصحائف ان نكشف القناع عن بعض نواحيها الغامضة واحاديثها المتعارضة .

* * *

اجمعت كتب الادب والتاريخ على ان امرأ القيس بعد ان اوقع ببني اسد طلبا لثأر ابيه حاربه المنذر بن ماء السماء اللخمي والب عليه العرب ؛ وقد شد أزره كسرى انوشروان لأحداث نقمها على الحارث بن عمرو عم امرئ القيس الذي حالف قباذ واجابه على ما يقال الى زندقة مزدك ؛ فاصبح امرؤ القيس في خلل من قومه ، واخذ يتقلب في احياء العرب بعد ان انفضت عنه جموعه وتنكرت الوجوه له ، حتى كاد يسلمه الى عدوه من يأوي اليه ويحتمي بجاه ، فدلوه على بلد يلجأ اليه ويمنع ضعفه ، وصاحبه في حصن حصين وحسب كبير ، وهو السموءل بن عاديا الذي يعجبه الشعر ويهتز للمكارم ؛ وقد وصف رواة الأخبار اخلاقه وشعره ، فجعلوا اخلاقه ممثلة في شعره ، وجعلوا شعره صورة من صحة موثقه ورعاية ذمته ؛ وكان من امره ان احسن رفد امرئ القيس وحفظ ما ائتمنه عليه حتى ادى ذلك الى قتل ابنه ؛ وقد كتب الى الحارث بن أبي شمر الغساني يوصيه بامرئ القيس ويسأله ان يوصله الى قيصر ؛ فاستصحب معه شيخاً كبيراً طوى مراحل الحياة ، وهو عمرو بن قميئة البكري الذي اعجبه شعره فاختاره لصحبته ؛ وقيل انه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استصحب سواه كالحارث بن حبيب السلمي الذي رثاه امرؤ القيس وذكر انه ثوى عند بصرى ؛ او جابر بن حنى التغلبي الذي له شعر في مقتل عمه شرحبيل ؛ ونقل الرواة اشعاراً نظمها امرؤ القيس وابن قميئة في هذه الرحلة ؛ وقد اكرم قيصر الروم امرأ القيس وادناه منه ، واجابه الى طلبه فامده بجيش كثيف ، فيه جماعة من ابناء الملوك ؛ ولما فصل الجيش قال لقيصر قوم من اصحابه : ان العرب قوم غدر ، ولا تأمن ان يظفر بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه ! فصرف الجيش وأعاده ؛ وفي رواية اخرى ان رجلاً يقال له الطماح من بني اسد كان واجداً على امرئ القيس لأنه قتل اخاه فيمن قتل ، فاندس الى القيصر ، وقال له ان امرأ القيس رجل عاهر ، وانه لما انصرف ذكر انه يراسل ابنتك ، وهو قائل في ذلك شعراً يشهرها به ، فبعث اليه حينئذ بحلة منسوجة من الذهب ، واودعها سماً قاتلا ، وكتب اليه : اني ارسلت اليك حلتي التي كنت البسها تكرمة لك ، فاذا وصلت اليك فالبسها باليمن والبركة واكتب الي بخبرك من منزل الى منزل ، فلما وصلت اليه لبسها واشتد سروره بها ، فامرع فيه السم وسقط جلده ، ولذلك سمي ذا القروح ، ومشهور الرواية انه مات بانقره ودفن فيها .

هذا هو مجمل ما كتبه مؤرخو العرب عن رحلة امرئ القيس الى قسطنطينية وقد اشار بعض مؤلفي الفرنجة الذين عنوا بالأدب العربي الى هذه الرحلة ، وذكر نيكولسن المستشرق الانكليزي ان القيصر سمى امرأ القيس بطريقاً ؛ وقد جاء في شعراء النصرانية للأب لويس شيخو ان مؤرخي الروم مثل نونوز ويركوب (وهو صاحب التاريخ السري) ذكروه في كتبهم وسموه قيساً ؛ وذكروا انه قبل وروده على القيصر يوستيانس ارسل اليه وفداً يطلب منه النجدة على بني اسد وعلى المنذر ملك العراق ، وكان مع الوفد ابنه معاوية الذي سيره امرؤ القيس ليبقى رهينة لديه ، فكتب القيصر الى النجاشي يأمره ان يجند الجنود ويسير الى اليمن ويعيد الملك لصاحبه ، ولم يلبث امرؤ القيس ان سار بنفسه الى القسطنطينية فرغبه قيصر ووعده ، ثم قلده امرة فلسطين ، الا انه لم يسع في اصلاح امره واعادة ملكه فضجر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

امرؤ القيس وعاد الى بلده ، وكانت وفاته نحو سنة ٥٦٥ (وهي السنة التي مات القيصر في آخرها) اصابه مرض كالجدري في طريقه كان سبب موته .

ونقل صاحب شعراء النصرانية أيضاً عن كتاب قديم مخطوط (؟) ان ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس امر بان ينحت له تمثال وينصب على ضريحه وقد بقي هذا التمثال الى ايام المأمون ، فشاهده هناك عند دخوله بلاد الروم في احدى غزوات الصائفة ، وهذه الرواية تعارض ماهو مشهور من وجود قبر امرئ القيس في انقرة التي لا تقع على طريق غزوات الصائفة ؛ على ان الشعر الذي روي عن امرئ القيس وفيه ذكر عسيب ، والسجع الوحشي المتنافر الذي اورد فيه اسم انقرة ، كلاهما بعيد عن منطق العرب الأصيل وعن اقوال الفصحاء امثال امرئ القيس ؛ ويحسن بنا ان نروي ابياتاً اخرى لامرئ القيس وان لم تكن من عيون الشعر الا أنها تشير الى هلاكه في ارض الشام ، وهي تناقض كذلك الرواية المشهورة ، وفيها يقول :

الا ابلغ بني حجر بن عمرو وابلغ ذلك الحي الحديدا
باني قد هلكت بارض قوم سحيقاً عن دياركم بعيدا
اعالج ملك قيصر كل يوم واجدر بالمنية ان تقودا
بارض الشام لا نسب قريب ولا شاف فيسند او يعودا

* * *

والى جانب قصة امرئ القيس فقد نقل رواة الاخبار أحاديث كثيرة عن السموءل بن عاديا وعمرو بن قميئة ؛ والشك قديم في بعض قصة السموءل ان لم يكن في جميعها ، حتى ان صاحب الاغاني عد بعض القصائد التي اسندت لامرئ القيس في هذه القصة منحولة ، لأنها لا تشاكل كلامه ، والتوليد فيها بين ؛ وقد صنعها دارم بن عقال من ولد السموءل او من روى عنه ... وكذلك فان الذين تحدثوا بهذه القصة العجيبة وتناقلوا روايتها لم يتفقوا على اسم الشخص الذي حاصر السموءل وقتل ابنه : ففي رواية انه الحارث بن ابي شمر الغساني ، وفي رواية ثانية انه الحارث بن ظالم الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعث به المنـذر لانتزاع امانة امريء القيس من السموءل ؛ ومن الغريب ان تسند هذه الحادثة الى الغسانيين واللخميين في آنٍ واحد ، وبينهما من الأحن القديمـة ما بينهما ؛ كما ان المنذر كان يتابع امرأ القيس حتى جعل الارض في عينيه أضيق من كفة حابل ، وان الحارث الغساني هو الذي أنفذه الى قيصر الروم اجابة لملتمس السموءل الذي يمت اليه بالقرابة .

أما عمر بن قميئة فيستغرب في أمره ان امرأ القيس اختاره لصحبته بعد أن نيف على التسعين ، فمات معه في الطريق ، وسمته العرب الضائع لموته في غربة ، وفي غيرارب ولا مطلب ، وكانت حاجة امريء القيس لرجل جلد يقوى على مثل هذه الرحلة ، وقد وصف الديار التي مر بها وصفاً يقصيها عما قاله امرؤ القيس في قصيدته الرائية ، وذلك بقوله :

قد سألتني بنت عمرو عن الـ م أرضين اذ تنكر اعلامها
لما رأت ساتيدما استعبرت لله در اليوم من لامها
تذكرت ارضا بها أهلها أخوالها فيها وأعمامها

وساتيدما جبل بين ميافارقين وسعرت .

* * *

هذه الاحاديث وأشباهها مما حمله الرواة قبل تدوين التاريخ ، كثيراً ما يدفع بعضها بعضاً حتى تتجاذب الباحثين فيها الشكوك ، واذا لم تنطق بصحتها الدلائل فانها تعد منحولة مدخولة ومولدة مصنوعة ، ولكن لا يجوز الامراع في الرد والانكار قبل تناصر الحجج وقيام البراهين ، حتى لا يبطل بغير حق كل ماوعاه التاريخ من تلك الاحاديث العريقة في القدم ؛ واضرب لذلك مثلاً قصيدة أمية بن ابى الصلت التي هنأ بها سيف بن ذي يزن باسترجاع ملكه ، وذكر فيها ما ورد من استنجاده بكسرى انوشروان بعد ان اخلف قيصر ظنه ، ولكن الشاعر بدلاً من أن يذكر اسم قيصر ذكر هرقل ، على حين ان هرقل والأسرة الهرقلية لم يكونا قبل سنة ٦١٠ للميلاد ، وهذا التاريخ يبعد عشرات السنين عن أيام كسرى انوشروان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي أرسل جيشاً لاخراج الحبشة من اليمن ، ولعل واضع البيت ظن اسم هرقل عاماً كاسم قيصر ! وكذلك فقد غاب عنه ان الحبشة حلفاء الروم وأبناء ملتهم !

وهذا بعض ما ورد في قصيدة ابن ابي الصلت :

ليطلب الوتر امثال بن ذي يزن خيم في البحر للاعداء احوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته فلم يجد عنده النصر الذي قالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد سابعة من السنين لقد ابعدت قلقالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا

وقد عالج هذه المواضيع الاستاذ طه حسين الذي هو أحد أئمة الأدب في هذا العصر وسلك طريقة غريبة في تمحيص روايات الجاهلية وأشعارها ، فأطلق لنفسه العنان في كتاب الادب الجاهلي وخرج عن قيود المألوف وتقاليد العادة ، وانكر في جملة ما أنكره حديث رحلة امرئ القيس الى القسطنطينية وما الحق بها من أخبار السموءل وعمرو بن قميئة ، واستضعف القصائد التي رويت فيها عن امرئ القيس ، وهي بحق دون طبقته في الشعر ، وتساءل كيف سافر الى بلاد الروم ؟ وهل دلت أشعاره على علم بالطريق ؟ وكيف خالط قيصر حتى فتن بنته ؟ ولماذا لا تجد في شعره أثراً من مظاهر الحضارة اليونانية ، ولا وصفاً لقصور القسطنطينية وكنائسها ، ولا ذكراً لهذه الفتاة الامبرطورية التي شغفت حباً به ؟ وقد تخلص من شكوكه وريبه الى القول بأن منشأ القصة يرجع للسياسة والعصبية ، ولا يعدو ما كان يرويه القصاص الذين يعملون لآل الاشعث من أحاديث أولهم ومفاخر قبيلتهم كندة التي كانت لها منزلة كبيرة في الحياة الاسلامية فاقتبسوا ما انتحلوه لامرئ القيس من سيرة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الذي غلبه الحجاج في دير الجماجم ، فحمله على الالتجاء الى ملك الترك والاستعانة به ، وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد له رسل الحجاج فمات عائداً في طريقه .

هذا هو الرأي الذي وجد الاستاذ طه حسين من اليسير ان يفترضه بل من الراجح ان يقول به ، فجعل حياة امرئ القيس مثلا استحدثه القصاص من حياة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبد الرحمن ارضاءً لهوى اليمانيين في العراق ، واستعاروا له اسم الملك الضليل اتقاءً لعمال بني أمية ، ولكنه رأي املاه على صاحبه خيال فسيح أمعن به ، وتقلب بين احنائه ، وأخذ ما شاء منه لتأييد حجته ، واذا كان شديد الوطأة في نقد سواه من الذين يتأثرون بالاوهام والتقاليد ، فما باله يقع في مثل ما وقعوا به عندما لجأ الى هذا الاستدلال العجيب الذي لا يخلو من افراط واعتساف ، بل نقول من هوى يقود في الغالب الى خطأ الرأي ومغالطة الحجة ؟ ولعله أقرب للصواب ان يبحث موضوع رحلة امريء القيس من وجوه أخرى ، ولا سيما بعد ان جاءت روايات عن المؤرخين اليونانيين تؤيد ما ذهب اليه رواة العرب فيما يتعلق بالرحلة من حيث الأساس اذا لم يكن من حيث التفصيل .

* * *

ان سياسة القياصرة كانت ترمي الى بسط نفوذهم في بلاد العرب ، واصطناع بعض امرائهم في اليمن والشام ، تلك البلاد القائمة على طريق الهند الذي لا يبرح موضع تنازع الدول ، وقد جعلت فتوحات الاسكندر شعوب الشرق متصلة بشعوب الغرب ، وقضت سياسة التنازع على الدولتين العظيمتين فارس والروم ان تبذلا جهودهما في التوثق من السيطرة على منتجات الهند وأسواقها ، فالأولى قابضة على تجارة الهند ، والثانية تسود في بحر الروم وفي الشام ومصر ، وكانت أطماعها المتعارضة تدفعها الى الحرص على نمو متاجرهما وعلو سلطانها وانتشار آدابها وثقافتها واتخاذ الاولياء والانصار في الشرق ، فأعان الاكاسرة على تأسيس مملكة عربية من لخم في مدينة الحيرة ليكون أبناؤها حماة لثغور الفرس من غارات العرب أنفسهم وأعواناً في مقاتلة الروم ، وكذلك صنع القياصرة في استعمال أبناء جفنة في أطراف الشام ، فكان المناذرة والغساسنة يؤازرون الروم والفرس ويشتركون في حوادث جسام تجري فيها ، وما استنجاد امريء القيس بقيصر لمقاتلة اللخميين حلفاء الفرس ، الا كاستنجاد سيف بن ذي يزن بكسرى لمقاتلة الحبشة حلفاء الروم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكل ذلك ينطبق على سياسة الدول وتقاليدها في تلك الايام بل على سياستها وتقاليدها في هذه الايام .

ويجدر بالذكر ان حفاوة القياصرة بامرآء العرب ظلت متصلة بعد الاسلام ، وان كانت قد ارتدت طابعاً آخر ، فقد ذكر مؤرخو الدولة البزنطية من الفرنسيين نقلا عن كتاب المراسم اليوناني ، ان القياصرة كانوا يعطفون على العرب ، لانهم اصحاب ادب ولطف وحضارة وسلطان ، واصول الحكم عند الفريقين متشابهة ، لذلك كانوا يضعونهم — كما قال رامبو المؤرخ الفرنسي — فوق ابناء دينهم الغربيين الجفاة ، ويستقبلون رسلهم بكلمات وصيغ لا يتخذون مثلها في مخاطبة رسل الفرنجة .

* * *

وامرؤ القيس صورة من صور ذلك المجتمع العربي في جاهليته ، الذي وصفته لنا المعلقات في عيشه وظرفه وسروره ودهائه وخفته وخلاعته وعبثه ورقته وحرصه وطموحه ، ومغالاته في حربته ، وامتناعه على من يريد ان يخضعه لحكمه ، فلا غرو اذا سمت به همته الى الاستنجاد بقيصر ، ولا غرو اذا قبله قيصر واكرم مثواه ، ووجود بعض النواحي الغامضة والحوادث المتشابهة وفقدان بعض التفاصيل وضياع بعض الأوصاف ، كل ذلك لا يسوغ لنا ان نحكم على هذا الحديث بانه من الاساطير ، واذا كنا اميل الى القول بصحة رحلة امرئ القيس الى القسطنطينية ، فاننا على ذلك لا نسلم بما ادعاه مؤرخو العرب من اسباب عدول قيصر عن امداده وايقاعه به ، خشية من غدره او لما وشى به واش من علاقته ببنته ، فذلك من اوهام الرواة ومحدثاتهم التي تنكرها الوقائع وتأباها طبيعة الأشياء ؛ وكيف يخشى القيصر في امبرطوريته العظمى مدداً انفذه لمناصرة امير عربي ان يعود الى غزو بلاده بقيادة هذا الأمير بعد ان يكون قد اصاب غايته ؟ أما الرواية الثانية التي تعتمد على ماقيل من دسيسة الطماح وكيده لامرئ القيس في دعوى ابنة القيصر ، فهي أضعف من الأولى واكثر باطلاً ، بل هي حديث مفترى لا يؤبه له ، ويكفي أن القيصر يسطيانس الذي ينبغي ان يكون قصده امرؤ القيس لم يكن له ولد من ذكر وانثى ، وما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه القدرة السحرية للطماح الذي جاء من أقصى الجزيرة ليكيد لامرئ القيس حتى استطاع أن يحمل القيصر على الاصغاء لوشايته والايقاع بعدوه !

على ان استنكاف القيصر عن امداد هذا الامير العربي الموتور ، الذي لاتخمد قوادح ضغنه ، ولا يستقر على قرار في الطلب بثأره ، قد يرجع الى أسباب تتعلق بسياسة الدولة ومصالحها العليا ، فقد كان هذا القيصر مهادنا لكسرى انوشروان في معظم ايام ملكه ، يبذل له الجزية ويسلم بغلبته في الشرق ، وهو منصرف كل الانصراف الى توطيد سلطانه في العاصمة البزنطية وما حولها ، ثم في سائر الأجزاء الغربية التي كانت تهددها عصائب البرابرة وتنتقصها من اطرافها ، ومع ذلك فان يسطيانس الذي خلد ذكراً باقياً في تاريخ القياصرة بجمع القوانين الرومانية ، كان موصوفاً بالرياء والخداع ، يحلف الأيمان المغلظة ، ويذرف الدمع رقة ورحمة ، ولكن بكاءه لم يكن عنوان حزنه ولا عنوان فرحه ، بل احدى الوسائل التي يستعين بها على قضاء حوائجه وبلوغ مآربه ، وكان في بعد غوره لا يبيح سراً ولا يطلع على مكنونات صدره احداً ، ولا يبالي ما ارتكب من غدر وخيانة ؛ فهل كان امرؤ القيس في عداد ضحاياه بعد أن وطأ له من مهاده وخفض له من جناحه ؟ ونحن نجد توافقاً غريباً بين ما كتبه مؤرخو العرب عن طريقة فتكه بامرئ القيس ، والصفات المأثورة عنه في كتب الروم (*)

نجيب الأرمنازي

(*) اذا ذكر القيصر يسطيانس فلا بد ان نذكر معه زوجته تيودورا التي يرجع اليها في شؤون المقاطعات الشرقية كالشام ومصر وتتصل بابنائها ، وقد جلست على عرش القياصرة وان لم تكن من اصل بزنطي حتى يقال انها ولدت في سورية ، وتاريخها حافل بالعجائب التي تشابه الأساطير .

وقد سار بها ابواها الى قسطنطينية وهي صغيرة السن لتحصيل بعض موارد الرزق ، فتعاطى والدها عملاً في ميدان من ميادين اللعب وكان يحرس بعض الحيوانات التي تراض وتعد ، اما أمها التي كانت تعيش في هذه البيئة المردية فانها لم تكن من امثلة الفضيلة ، وكانت ترى في جمال ابنتها مايعادل ثروة عظيمة ، فنشأت تيودورا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين المغنين والراقصين واللاعبين ورائضي الحيوانات حتى برعت في صناعة المسارح واحرزت قصب السبق ، واخذت تغدو وتروح الى المجتمعات والنوادي ، تتهادى في معارض سحرها وجمالها ، حتى اصبحت ملكة من ملكات العبث واللهو ، وكان في وسعها ان تفاخر بانها لم تبلغ العشرين حتى احبها جميع الرجال وابغضها جميع النسآء ، واذا صدقنا ما قاله بركوب — مؤلف التاريخ السري — وهو يتلظى حسرة وغيظاً على الفضيلة الملطخة بالعار ، فانه لم يكن يشاهدها رجل وقور حتى يشيح بوجهه ، مخافة ان يلحقه الاذى من لقاء شخص مثلها غارق في حمأة الرذيلة ، وأن يصيبه الضر في ذلك اليوم الأنكد ، وكان هذا المؤرخ يصفها بالوضاءة والحسن ، ولعل في ذلك ما يشرح سر نجاحها ، فقد كانت تفتن وتخيف ، وتمتاز بذكائها وصحة رأيها ، وتعرف ما تجره من المغانم عن طريق عقلها وجمالها ، فكثر المعجبون بها وكلهم من الاغنياء المترفين ، وأصبح منزلها ملهى لعظماء القسطنطينية ونخبة شبابها ، وقد ولي أحد عشاقها افريقية فاستصحبها معه ، ولا يعرف ماتم لها في هذه الربوع ، ولكنها غادرتها بعد حين الى الاسكندرية ، فأخذت تسلك فيها مسالك الزهاد ، وعدلت عن سبل الغواية وانقطعت الى عبادة الله ، وراحت تختلف الى الوعاظ والنساك والرهبان والبطاركة ، فكانوا يتقبلون بقبول حسن هذه المستغفرة لذنبها ، النادمة على ما فرط منها .

ولما عادت الى القسطنطينية كانت تبدو عليها ملامح الوقار ، وتلقي على وجهها قناعاً تلوح خلاله مظاهر الجمال ، فالتقى بها يسطيانس وهي على هذه الحال من اظهار التوبة والانابة ، فاقتنصته بحبائل فتنتها وأضحت خليلة له ثم زوجة ، وتوجت في الميدان الذي كانت تركض فيه الى اللهو وتقبلت تهانئ الشعب وتكرمته ، واستمرت في عظمة سلطانها حتى طوتها الأيام في سجل الفناء ، وهي وقورة رزينة ، سديدة الرأي ، مهيبة الجانب ، مهيمنة على العظماء والرؤساء ، لا يؤذن لهم بالدخول عليها بسهولة ، واذا أذنت لهم يركعون لها ويقبلون أقدامها ، ولا ينطقون بكلمة مالم تأمرهم بالكلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في حضرتها ، وكانت أشد حماسة من الامبرطور واكثر هوى وأقوى شكيمة واعظم خطراً ، وخلدت في تاريخ القياصرة ابلغ صفحة لأعظم امبراطورة .

وكانت تحب نفائس الاشياء وغوالي الدرر وطيبات المآكل ، وكان الاعجاب بعبقريتها لا يقل عن الاعجاب بجمالها ، وابقت صورتها وصورة زوجها أثراً من الآثار البزنطية التي لامثيل لها ، في زينة باهرة من الحلي والحلل والحجارة الكريمة والفن البديع ، ولم يكن السلطان الذي لها على القيصر لأنه يحبها أشد حب ، بل لأنها كانت لديه أعظم من يستشيره وأوثق من يعتمد عليه ، وللنساء من وجهة عامة دقة نظر في السياسة ، لأنها تستلزم نظرة مجردة الى الحياة ، وشيئاً كثيراً من مسايرة الامور ومجاراة الحوادث وتطبيق المبادئ عليها لا تطبيقها على المبادئ ، وهذه الصفات التي تمكنت منها تيودورا هي من أخص صفات النساء ، ولعل حياتها المنقلبة وما مر عليها من أحداث وأطوار زاد في حنكتها وأحسن تجربتها وتأديبها .

وحسب هذه الملكة من المواقف العظيمة التي وقفتها في أيام سلطانها ما فعلته عندما نشبت ثورة كبرى في القسطنطينية ، وهاجم الثائرون قصور الدولة ودور الحكومة وأحرقوا كنيسة أياصوفية ، وخربوا ودمروا ، ونادوا بملك جديد ، فاستولى اليأس والقنوط على القيصر وبطانته حتى هموا بالفرار وأخذوا بالبحث عن وسائله ، لولا أن تيودورا التي لا تلين عزيمتها في الخطوب والعظائم ، بثت فيهم روح الشجاعة وحملتهم على الاستبسال في المقاومة ، وألقت عليهم كلمات موجزة تضطرم بنيران الحماسة ، وتدل على أنها كانت أهلاً لما أحرزته من مقام ومنزلة ، وقالت لهم :

« قد لا يكون من شأن المرأة — أليس كذلك ؟ — أن تخاطب الرجال وان تبعث الشجاعة في نفوس الجبناء ! غير ان ساعات الخطر الشديدة توجب على كل واحد أن يبذل قصارى جهده في دفع الخطر وإدراك السلامة ، ولا شك عندي أننا في موقف لا ينفع فيه الفرار ، حتى اذا كان في الفرار نجاة ، لأننا لا نتمتع بالحياة الا قليلاً ريثما تسلب منا ، ولا يحق لمن يتقلد الحكم والسيادة أن يتمتع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالحياة إذا حرم منها ، فلا أراد الله أبداً أن انزع عنى رداء الملك ، أو ان أتخلى عن لقب الامبرطورة ! أما أنت أيها القيصر فانك تستطيع الفرار اذا ابتغيت سبيله ، ولديك أموال وسفائن ، والبحر قريب منك ، ولكن اسمع لما أقوله لك : انك اذا تخليت عن هذا القصر فستتبعه حياتك على الاثر ، وأما أنا فسأتمسك بالقاعدة التي أحبها ، وهي ان الارجوان — رداء الملك — أجمل ما يكفن به انسان . »

فهذه الجرأة النادرة والكلمات البالغة المؤثرة والامتهان المقترن بالاباء والانفة افاض على الامبرطور ومستشاريه من الاقدام والعزيمة ما بدل من نفوسهم وأوقد جذوة الحماسة في قلوبهم ، فأمروا بارسال الجنود المجربين الذين لا ترهبهم كثرة الذين اطلقوا عقال الثورة وأثاروا نقعها ، فحملوا عليهم حملة شديدة حتى أزالوهم عن مراكزهم وأحاطوا بجموعهم واكثروا القتل فيهم ، فاعتدل الأمن في نصابه واستقر النظام في قراره ، واستوسق لقيصر الأمر ، وعظم شأنه ونفوذه اكثر من قبل ، وذلك بيمن زوجته وحسن تدبيرها وفاضل رأيها .

ن . ا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net